حوليات آداب عين شمس المجلد 52 (عدد يناير – مارس 2024)
http://www.aafu.journals.ekb.eg
(دورية علمية محكمة)
جامعة عين شمس
كلية الآداب

رؤية الروائية الأردنية للعلاقات الاجتماعية المعاصرة "سميحة خريس نموذجاً"

د/ مالك سالم صالح الصرايرة*

المملكة الأردنية الهاشمية
malilsalem816@gmail.com

تاريخ الاستلام: 2023/03/19
تاريخ قبول البحث: 2023/04/27
تاريخ النشر: 2024/03/30

المستخلص:

هدف البحث إلى التعرف على رؤية الروائية الأردنية للعلاقات الاجتماعية المعاصرة، والتعرف على الروائية الأردنية سميحة خريس وأعمالها الروائية، إضافة إلى الكشف عن المضامين الروائية التي تبرز العلاقات الاجتماعية في أعمالها، وذلك من خلال دراسة أربع روايات هي: رواية خشخاش، ورواية الصحن، ورواية دفاتر الطوفان، ورواية القرمية. واعتمد البحث المنهج الوصفي التحليلي أساسا يرتكز عليه؛ لكونه مناسبا لهذا النوع من الأبحاث، والمنهج الاجتماعي لإبراز العلاقات الاجتماعية. وقد حملت أعمال سميحة خريس جوانب من الحياة الاجتماعية للمجتمع الأردني، وسطرت بعض الجوانب من تاريخ الاردن الحديث بأسلوب سردي أتقنت مكوناته، فكانت الطبقية التي عانى منها المجتمع آنذاك، تلك التي قسمت المجتمع إلى أغنياء وفقراء، ومثلت أعمالها لقضية الفقر التي استحضرتها في غير مشهد روائي. وتفننت سميحة خريس بتوظيف المكان، سواء أكان مفتوحا أم مغلقا، لتحمله الدلالات التي تعبر عن مضامين تحمل بجعبتها صور المجتمع وخفاياه.

الكلمات المفتاحية: الرؤية، الروائية الأردنية، العلاقات الاجتماعية، سميحة خريس.

© جميع حقوق الطبع والنشر محفوظة لحولية كلية الآداب – جامعة عين شمس 2024.

المقدمة

تعد الرواية من أكثر الأنواع الأدبية تعبيرا عن الحياة بكافة أشكالها، لما تحمله في جنباتها موضوعات ومضامين ورؤى إنسانية، فهي ميدان خصب للتفاعلات الاجتماعية بين أفرادها. تكشف الرواية أيضا عن الصراعات والتحولات الاجتماعية التي تحدث في المجتمع في إطار فني لغوي، يمكن رصده من خلال دراسة النص الروائي، ودراسة فاعليته في التنبؤ بحدوث تغييرات مثقل بالدلالات الاجتماعية، ويمكن رصده من خلال دراسة النص الروائي ودراسة فاعليته في التنبؤ بحدوث تغييرات ملائمة في الحياة الإنسانية، أو تحديد ما يفترض تغييره في الموروث التقليدي. يتم ذلك من خلال انتقاد السلوكيات غير السوية في المجتمع، وخلق صراع دائم بينها وبين القيم الحديثة، تسعى الرواية للتعبير عن العلاقات الاجتماعية القائمة، والمساهمة في خلق علاقات جديدة؛ لهذا فإن مهمة الرواية تتمثل في تجسيد رؤية فنية، أي تفسير فني للعالم، فهي تعبر فيه عن الواقع وتناقضاته وصراعاته وأزماته، وأصبح من الطبيعي أن يقوم الباحثون في الأدب بدراسة مضامين النص الروائي الاجتماعية واللغوية للوقوف على مدى ملائمة ما يقدمه المؤلف للمجتمع، وما يطرح من أفكار ورؤى من خلال إبداعه الروائي.

وتعد الروائية سميحة خريس من أهم الروائيات الأردنيات اللواتي ظهرن على ساحة الأدب وتميزت بإنتاجها الغزير مقارنة مع غيرها من الكاتبات، كما تميزت بالجرأة في طرح الموضوعات. وبدأت الروائية سميحة خريس انجازها الروائي برواية (رحلتي) عام 1980، ولم تقدم خلال عقد الثمانينيات عملا آخر، وتركزت ابداعاتها الروائية في العقدين الأخيرين من القرن العشرين، والأول من القرن الواحد والعشرين، وقد حرصت ألا تكرر نفسها أو غيرها في كل عمل روائي([1]).

وقد أظهرت الروائية سميحة خريس جوانب كثيرة من العلاقات الاجتماعية في المجتمع الأردني من خلال أعمالها الروائية التي انتشرت على مساحة الوطن العربي.

ومن خلال استقراء الدراسات التي تناولت أعمال الروائية سميحة خريس فقد أظهر ذلك الاستقراء أن موضوع هذا البحث لم يحظ من قبل بدراسة مستقلة، لذا فقد حاول البحث الاستفادة من الدراسات الروائية من أجل إبراز الرؤية للعلاقات الاجتماعية في الأعمال الروائية للكاتبة سميحة خريس، وكشف الأبعاد الجمالية فيها وبيان قدرة الرواية على التعبير عن القضايا الاجتماعية.

أهمية البحث

وتأتي أهمية هذا البحث من كونها تتناول إحدى رائدات الرواية النسوية الأردنية، وهي الروائية سميحة خريس، التي غفلت الدراسات الأدبية عن دراسة أعمالها فيما يخص رؤيتها للعلاقات الاجتماعية، فلم يجد الباحث – على حد علمه – دراسة وافية تناولت أعمال فيما يخص موضوع الدراسة الحالية بالدرس والتحليل.

أهداف البحث

هدف البحث إلى التعرف على رؤية الروائية الأردنية للعلاقات الاجتماعية المعاصرة، والتعرف على الروائية الأردنية سميحة خريس وأعمالها الروائية. وهدف كذلك إلى الكشف عن المضامين الروائية التي تبرز العلاقات الاجتماعية في أعمالها.

الدراسات السابقة

لقد تناولت غير دراسة الأعمال الروائية للروائية الأردنية سميحة خريس، وقد تناولت تلك الدراسة جوانب مختلفة لتلك الأعمال، ولكن لم يجد الباحث على حد علمه دراسة تناولت موضوع البحث الحالي، ومن الدراسات التي تناولت أعمال سميحة خريس: دراسة ذكريات صالح الخوالدة، 2011 بعنوان: "شخصية الأم في روايات سميحة خريس" وهي رسالة ماجستير غير منشورة من جامعة آل البيت. ودراسة نزار قبيلات، 2010، "البنى السردية في روايات سميحة خريس، وهي صادرة عن دار أزمنة للنشر والتوزيع.

وقد اعتمد البحث على عدد من المصادر والمراجع، كان من أهمها، ثلاثة أعمال روائية لسميحة خريس: وتعتمد في ذلك على ثلاث روايات لسميحة خريس وهي: رواية خشخاش، الصادرة عن المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت 2000 . ورواية الصحن، الصادرة عن دار أزمنة، عمّان، 2003. ورواية دفاتر الطوفان، الصادرة عن أمانة عمّان، 2003. ورواية القرمية، الصادرة عنمنشورات أمانة عمان الكبرى، عمان، الأردن، 1999، ومن المراجع أيضا بنية الشكل الروائي لحسن بحراوي. الصادرة عن المركز الثقافي العربي، 1990. وسميحة خريس قراءات في التجربة الروائية، الصادرة عن أمانة عمان، 2005. وغيرها من المراجع.

منهج البحث

اعتمد البحث المنهج الوصفي التحليلي أساسا يرتكز عليه؛ لكونه مناسبا لهذا النوع من الأبحاث، والمنهج الاجتماعي لإبراز العلاقات الاجتماعية. وقسم البحث إلى مقدمة وتمهيد وثلاثة مباحث وخاتمة. تناولت المقدمة أهمية البحث، وأهدافه، ومنهجيته. أما التمهيد فتناول الرواية والمفهوم. وتناول المبحث الأول البناء الاجتماعي في روايات سميحة خريس: الرجل، والمرأة وقضاياها، وجاء المبحث الثاني بعنوان: القضايا الاجتماعية في روايات سميحة خريس، وتناول قضايا الصراع الطبقي، وقضية الفقر، أما المبحث الثالث فعنون بالبيئة المكانية وأثرها الاجتماعي في النص الروائي، وتناول المكان المفتوح، والمكان المغلق.

وانتهى البحث بخاتمة تناولت أهم النتائج التي توصل إليها البحث.

تمهيد: الرواية والمفهوم

تعد الرواية من الفنون الأدبية الحديثة نسبيا، فظهورها في العالم الغربي لم يتجاوز أكثر من ثلاثة قرون في حدّه الأقصى، ولا أكثر من قرن ونصف في العالم العربي، غير أن هذا الجنس الأدبي بدأ كجنس قادر على التمثل والإفادة من فنون أخرى، وهو الفن الذي يوفق ما بين شغف الإنسان الحديث بالحقائق وحنينه الدائم إلى الخيال، وما بين غنى الحقيقة وجموح الخيال[2]. وهذا يعني أن الفن الروائي أصبح يمثل ملاذا لتطلعات المتلقي الذي يبحث بطبعه عن متضادين سكنا وجدانه، وهما: الحقيقة والخيال، فنقل الأحداث أو الواقع يحتاج لصياغة فنية ترتقي بذوق المتلقي وتلبي رغباته.

وعند الرجوع إلى المعاجم العربية لتحديد مفهوم الرواية يتضح أن لفظة رواية تدل على التفكير في الأمر، وتدل على نقل الماء وأخذه، كما تدل على نقل الخبر واستظهاره، فالمدلولات المشتركة للرواية تفيد في مجموعها عملية الانتقال والجريان والارتواء المادي "الماء" أو الروحي "النصوص المختارة، وكلا النوعين كانا ذا أهمية في حياة العربي، فكان الماء هدفهم المنشود من أجله يحلون ويرتحلون، وكانت رواية الشعر الضرورة اللازمة لكل شاعر، كما كانت الرواية الوسيلة الأولى لحفظ الأشعار والأخبار والسير[3]. وعند النظر في المدلولات اللغوية للفظة الرواية عند تأصيل المصطلح، فإن المعنى الاصطلاحي للرواية كجنس أدبي حديث لا يكاد يكون ذا ملتقى لفظي، ويبدو أن تعريف الرواية لغة لم يفد الدارسين في تحديد تعريف اصطلاحي محدد لها؛ ولأن الرواية ذات تطور متجدد ومستمر، ولحداثة هذا المصطلح فقد بات من الصعوبة بمكان تحديد تعريف محدد لها، ويقول عبد الملك مرتاض في اختلاف تعريف الرواية: "تتخذ الرواية لنفسها ألف وجه، وترتدي في هيئتها ألف رداء، وتتشكل أمام القارئ، تحت ألف شكل؛ مما يعسر تعريفها تعريفا جامعا مانعا. ذلك لأننا نلفي الرواية تشترك مع الأجناس الأدبية الأخرى بمقدار ما تستميز عنها بخصائصها الحميمة، وأشكالها الصميمة"[4].

وهذا لم يمنع كثيراً من الدارسين أن يحاولوا إيجاد تعريف للرواية، فأوردوا في كتبهم بعض تلك التعاريف، فأورد معجم المصطلحات العربية في اللغة والأدب أن "الرواية في الأدب سرد نثري خيالي طويل عادة، تجتمع فيه عدة عناصر في وقت واحد مع اختلافها في الأهمية النسبية باختلاف نوع الرواية، وهذه العناصر هي: الحدث، والتحليل النفسي، وتصوير المجتمع"[5]. أما معجم المصطلحات الأدبية فعرف الرواية بأنها: " سرد قصصي نثري يُصوِّر شخصيات فردية من خلال سلسلة من الأحداث والأفعال والمشاهد، والرواية شكل أدبي جديد لم تعرفه العصور الكلاسيكية والوسطى، ونشأ مع البواكير الأولى لظهور الطبقة البرجوازية، وما صاحبها من تحرر الفرد من ربقة التبعيات الشخصية"[6]، تضمن هذا التعريف جملة من المصطلحات والتقنيات الروائية التي تستحق بدورها التوضيح ، مثل السرد والشخصيات والأفعال، فهو تعريف واسع، وقد أهمل تحديد الرواية بعدم ذكر حجمها وأنواعها وتطورها، واكتفى بربط ظهور الرواية بنشوء الطبقة البرجوازية التي حررت الفرد[7]. والرواية "نثر سردي قوامه أفعال إنسانية تعكس وجهة نظر الروائي، يصور من خلالها جوانب هامة من الحياة الواقعية القريبة من الإدراك أو المحتملة الوقوع شرط أن ينفعنا بها فنيا ووفق ما تقوى الذاكرة على وعيه"[8].

وإن الرواية جنس أدبي منفتح وغير مكتمل، تتخلله عدة أجناس أدبية كبرى وصغرى، وتتسم كذلك بالطابع الدينامي، والتشعب الأجناسي، والتوسيع الخيالي، والتعدد اللغوي والصوتي والأسلوبي، إضافة إلى كونها مرآة لتشخيص الذات والواقع وطرائق كتابتها وصياغتها، وهي صراع جدلي بين الذات والموضوع، وتعبير عن اغتراب الإنسان في مجتمع منحط، يفتقد إلى القيم الأصيلة والمبادئ الكيفية، وهي تصوير لنثرية المجتمع المعاصر الذي تنخره الماديات المشيئة، وتنهشه الغرائز الكمية"[9]. ويعرفها رشاد الشامي بأنها: الجنس الأدبي الأقدر على التقاط الأنغام المتباعدة، والمتنافرة، والمركبة، والمتغايرة الخواص لإيقاع عصرنا ورصد التحولات المتسارعة في الواقع الراهن[10].

والرواية جنسٌ أدبيٌ حديثٌ، ارتبطت نشأتها بنشأة الطبقة البرجوازية، ومن هنا كان اعتبارها فناً برجوازياً، بمعنى أن نشأتها مرتبطة بالتطورات الاقتصادية، والتحولات الاجتماعية داخل المجتمعات الأوربية، وقد نظر هيجل إلى الرواية على أنها النوع الفني الذي يقابل الملحمة، حيث تتمثل في الرواية السمات الجمالية للقصة الملحمية الكبيرة، وعلى هذا الأساس فإنه يرى أن الرواية طور تاريخي من أطوار الفن الملحمي الكبير[11].

المبحث الأول

البناء الاجتماعي في روايات سميحة خريس

أولا: الرجل

لقد رسمت الروائية سميحة خريس صورا واقعية لذلك الرجل الذكوري، بكل ما في تلك الصور من شجاعة وكرم، وتسلط واستبداد، كان الرجل في رواية خريس تاجرا وعاشقا وبطلا، وأبا وزوجا وابنا.

إن الرجل البطل الذي يتحلى بصفات الفروسية كان حاضرا في روايات سميحة خريس، وذلك من خلال استحضار رجل الواقع، من خلال السرد التاريخي لبعض الرجال، فهذا عودة في روايتها القرمية التي تدور حول تاريخ الأردن الحديث مسلطة الضوء على الأحداث التي رافقت الثورة العربية الكبرى، فقد كان عودة بطلا مغوارا وفارسا شهما "وقد أقسم أحدهم أن رصاصة أصابت عقيد البدو "عودة" بمقتل، وكاد يكذب عينيه وهو يراه ما يزال طائرا فوق صهوة حصانه"[12]، الكاتبة هنا تتحدث عن البطل البدوي (عودة أبو تايهة) ذلك القائد الذي كان يتقدم فرسانه، فلم يكن فارسا عاديا بل نجد الروائية أوصلته إلى حد العجائبية، فهو يصاب برصاصة ومع ذلك يبقى يقاتل وهو على صهوة حصانه.

هذا نموذج من نماذج الرجل عند سميحة خريس، ولكن لم يكن الرجل عندها في العمل الروائي على خط سير واحد، فنجد ذلك الأب المتسلط على زوجته،

ونجد الأب الذي يضرب ابنته لمجرد أنها رفضت حقا من حقوقها، فلما رفضت الفتاة الزواج من رجل لا تحبه أو لا تريده كان الوالد متسلطا عليها فيضربها كي يجبرها على تنفيذ الأمر "صاحت البنت ولكن صفعة أسكتتها...."[13]

وتأتي صورة الزوج المستبد ظاهرة في روايتها دفاتر الطوفان، ذلك الزوج الذي يضرب زوجته بحزامه الجلدي، فقد جاء الوصف على لسان أم غالب وهي تستذكر ذلك المشهد الذي ضربها به زوجها لأول مرة، "وقد أخبرت أم غالب عندما ضربها زوجها لأول مرة فبكت وأعلنت وأقسمت لن يفرح منها بحداد إذا مات"[14]

وتتكرر صورة الرجل السيد الآمر الناهي في غير موضع من روايات سميحة خريس، ويظهر ذلك من خلال وصاياها لأبنائها في احترام زوجها الثاني الذي تريد أن تتزوجه، فتقول نجمة عندما تزوجت زوجها الثاني مخاطبة أبنائها "مشانكم أنا قلت ما في عرس ولا رقص وغناء وبدي إياكم تحترموا الرجال وتطيعوه، هذا صار مثل أبوكم، هذا رجّال البيت هلا"[15]، هنا يظهر الزوج الثاني سيدا للبيت، فهو كما ترى نجمة (رجّال) البيت وهو واجب الطاعة.

ثانيا: المرأة وقضاياها

تناولت سميحة خريس صورة المرأة بأغلب صورها الأم والزوجة والبنت والكاتبة، فجاءت صورة المرأة العاملة في رواية خشخاش لتمثل تلك المرأة التي يقع على عاتقها الأعباء اليومية، والمسؤولية التي تبدأ من البيت والأولاد والزوج، وهي مكلفة بإنجاز كل ما هو مطلوب منها، وفي كل يوم المطلوب هو هو لذا أصبحت عادة يومية مطالبة بإتمامها" حليب الصباح أو الخبز الذي ما تبقى غلا كسرة منه، إغلاق شفاطة الحمام الكهربائية، إعداد طبق البازلاء والأرز ابني سيتذمر ولكني لن أعيره انتباها عليه أن يتعود أي مذاق وإن لم يستسغه، جمع قطع الغسيل المنسي على الحبل منذ الأمس....كي مراييل المدرسة وقمصان الزوج.."[16].

وقد جاءت صورة المرأة البسيطة المسالمة التي تتحمل الظلم، والقمع فهي امرأة مسلوبة الارادة عانت كثيرا مع زوجها فتمثل شخصية المرأة التي فرضت عليها أن تكون ضحية الرجل أو المجتمع فهي خاضعة ودائما راضية لذلك كان السبب في هلاكها "مكنها الرضا من احتمال الآخرين دون أن تنفجر سخطا أو عاصفة لا يعرف أين مستقرها، الرضا درسها الأثير الدرس الذي جعل المرأة الهادئة الميتة في حياتها تحتمل موتا كالذي يعيشه والدها"[17]. وتظهر شخصية المرأة في رواية دفاتر الطوفان بشكل جلي في شخصية نجمة (أم غالب) وهي شخصية متحررة استقلالية فهي تمثل شخصية نموذجية رئيسة في الرواية، ومن المواقف التي صدرت عنها عندما واجهت فيها أبا عبدالرحمن الذي طلب إليها أن تجعل ابنتها لمياء ترتدي فستانا طويلا بدل الفستان القصير، ولكنها تجيبه بحزم بأن ابنتها لها كامل الحرية في ارتداء الفستان الذي تريده فهو قرارها وليس لأحد حق في التدخل فيه فتقول لابي عبدالرحمن "جيتك غالية، بس الأمير، وإلا أبو حنيك نفسه، شو خصهن بلبس بنتي؟ هي طفلة وأنا بساوي اللي بشوفه..... ما حدن إله عندي.

- مثل ما بدك يا خيتي مثل ما بدك"[18].

وتظهر أيضا المرأة غير المبالية التي لا تهتم بأسرتها ولا بيتها، فتمضي وقتها مع الأخريات دون الانتباه لبيتها "لم يتنبه بداية للتغيرات التي طالت حياتهم، كأن تبتاع أمه حجرة خشب مصدفة فارهة، كأن يكون عليه مغادرة البيت كل مساء أربعاء لأنه هذا موعد استقبال أمه لنساء عمان، يثرثرن ويأكلن السحلب والمكسرات والتفاح والخيار البلدي، لم يسترع انتباهه أن أمه خلعت الثوب البدوي وارتدت فستانا مدنيا وأنها تحب الأحذية أكثر من نفسها ...."[19].

ويمثل نموذج المرأة المثقفة المتصلة بواقع الناس المعيش والمثقلة بالهموم أحد النماذج التي تجيب بشكل غير مباشر عن نظرة المجتمع وتساؤلاته ورفضه حتى لهذا النموذج، وهي وعلى الرغم من هذه النظرة إلا أنها لا ترغب لهذا النموذج أن ينظر إليه كنبتة الخشخاش المحرمة زراعة وبيعًا، وتأتي صورة المرأة العاملة بائعة الزهور" امرأة انيقة باسمة اقتربت مني تستفسر عن طلبي تلقت حولي دون اهتمام غارقة في مللي تمتمت وكأني أكلم نفسي"[20]. ومن القضايا التي تناولتها سمحة خريس في أعمالها الروائية وكانت تخص المرأة قضايا الزواج، فهاهي نجمة يكتب كتابه دون علم منها، فيخبرها والدها:

" - غطي راسك والحقيني.

- لحقت نجمة بوالدها، ولم تعد إلى الكتاب قال لها:

- كتبنا كتابك على أسعد التاجر في معان.

صاحت البنت ولكن صفعة أسكتتها....[21]

وقضية تعامل الزوج مع زوجته، فقد أخبرت أم غالب عندما ضربها زوجها لأول مرة فبكت وأعلنت وأقسمت لن يفرح منها بحداد إذا مات، وعندما قررت الطلاق منه، قال أبوها: "

- ما بتفرحي بالطلاق وراسي تشم الهوا، انتي مع هالزلمة تا يموت وإلا تموتي.

صرخت:

- يجعله يموت، والله ما بفرح مني بحداد"[22]

من هنا يتضح أن أمر الزواج لم يكن بيد المرأة، بل كان بيد والدها أو ولي أمرها، وكأنها بضاعة لا رأي لها في ذلك، حتى وإن قست عليها الحياة وتعرضت للإهانة من زوجها وكرهت الحياة معه، وحاولت أن تنفصل عنه فإن ذلك محرم في الشرع الاجتماعي، فالوالد هو من يقرر ذلك.

أما علاقة الرجل بالمرأة، من الناحية الإنسانية، أو من ناحية الحب والعشق والجنس فتمثلها علاقة عقاب بمزنة في رواية القرمية، فقد كانت علاقة "عقاب ومزنة" تعد علاقة فوق الطبيعية، فكان العشق متبادل بين الاثنين، ولا يستطيع احدهما الابتعاد عن الآخر، فيقول "عقاب" عن مشاعره أثناء العودة إلى "مزنة" : "تفهمني الكحيلة وهي تقودني وتعلم أن عودتي كانت لرؤية وجه الحبيبة ليس غير، أهفو إلى لقاء "مزنة" والمحاربين حولي يشتاقون لأنثى، واشتقاقها بصورة مغايرة، وإذ يحيطني زندها واشتم حرير صدرها، أتماهى معها، الجسدان يصيران واحدا ثم ينفكان بحكم الحياة وكل ما هو خارج عن الحياة، أما الأرواح فلا يصيبها الملل من هذا العناق الأزلي الأبدي، لا فكاك"[23]، بهذه المشاعر يصف لنا "عقاب" علاقته بزوجته، فهي تتفوق على العلاقات الرجل العادي بالمرأة العادية، وهنا كان الشوق ثنائي الدوافع، دافع روحي يتعلق بالعاطفة، وآخر جسدي يتعلق بالشهوة، وهذا الطرح يعد واقعيا وأيضا روحيا، فهو يلبي حاجة الإنسان من عاطفة الحب والجنس معا.

المبحث الثاني
القضايا الاجتماعية في روايات سميحة خريس

أولا: قضايا الصراع الطبقي

لقد كانت الطبقية ظاهرة المعالم في كثير من أعمال سميحة خريس، وذلك من خلال إظهاره بشكل فردي أو جماعي، فمن الشكل الفردي الذي يمثله أمين الحسيني في رواية دفاتر الطوفان، الذي كان يصول ويجول، ويحتل مكانة مرموقة في المجتمع، وهو الآمر الناهي "والذين عارضوا فتح محله بداية الأمر، وحاولوا عرقلته غلى أن تدخل أمين الحسيني، الناس مقامات، وشهرة الحلاب طوت البلاد، ووصلت إلى الحسيني، أزعم ان الهدية القيمة من الراحة سبقت وصول الحلاب إلى القدس كان لها أكبر تأثير"([24]). في هذا المشهد يظهر أمين الحسيني من المقامات العالية، وذلك من خلال جملة (الناس مقامات) وهنا دلالة واضحة على الطبقية، فالناس ليسوا سواسية، وليسوا على مقام واحد، وهذا ما تمثله الطبقية بشكل واضح، وقد كانت هذه الطبقية التي تصنف الناس إلى أغنياء وفقراء، أو طبقة خاصة وعامة ظاهرة في المجتمع آنذاك، وما زالت إلى يومنا هذا في بعض المجتمعات.

وإذا كانت الطبقية أو الأرستقراطية متمثلة عند الرجال فهي أيضا متمثلة في النساء من خلال الرفاهية الزائدة، فهذه (نجمة) التي تتعالى في تصرفاتها على غيرها من النساء، متخذة بعض الأساليب في ذلك "فنجمتنا المصون امرأة غير عادية، فقدميها نظيفتين دائما، تغسلهما بصابون اللوكس في الوقت الذي تستكثر باقي النساء هذا الصابون النادر على وجوههن..."([25]). إن استعمال نجمة لصابون اللوكس الذي كان يعد آنذاك من الكماليات أو من السلع غالية الثمن، فإن نجمة تغسل به قدميها، مع أن بعض النساء الأخريات من الطبقة الكادحة تستكثر أن تغسل به وجوههن، ونجمة هنا تحاول أن تضع حاجز الارستقراطية بينها وبين الأخريات، وكانت تتباهى بأفعالها تلك، وتتحدث للنساء بها لإظهار الفروقات بينها وبين الأخريات.

ثانيا: قضية الفقر

لقد كان الفقر والجوع أحد مظاهر مجتمعات روايات سميحة خريس، فكثير ما كانت تظهره بشكل أو بأخر، حتى أنها كانت تصل به إلى الأطفال، فهم يشتهون بعض الطعام فيخرجونه من القمامة لأكله "رمت هيام بصحن الألمنيوم المدهون بحدة إلى الأرض، ولم يمنع دورانه، وصوت ارتطامه بالبلاط عبد الرحمن من التقاط الحبة الملقاة في كيس القمامة زاعقا: بترمي الحلقوم.... سبحان الله كأنه بصح لوحدة زيك توكل هيك نعمة"([26])، هذا المشهد الذي يصور الطفل عبد الرحمن وهو يلتقط حبة الحلقوم من القمامة، إنما يدل على قلة الحلقوم وغلاء ثمنه، فلو كان متوافر لهذا الطفل لابتعد عن تناوله من ذلك المكان، وهنا دلالة واضحة على فقر بعض طبقات المجتمع، التي وصلت بها إلى افتقارهم لأقل القليل.

ولك تكن المشاهد الإنسانية هي وحدها التي تظهر الجوع والفقر، بل تناولت الكاتبة بعض المشاهد التي أرادت من خلالها أن تضع المتلقي في واقع ذلك الزمان، فالحيوانات قد عانت من الجوع والفقر "ذوت أصائل الخيل، جفت الضروع، أكل الناس الشعير إذا وجدوه، جربوا حتى سحالي الأرض وحياتها، حتى هذه نفقت تحت صهد القيظ، سلطت الأرض عقابها على من يرفعون السيف، صارت الصحراء الممتدة امتدادا للصحراء الاهبة في النفوس"([27]). هذا المشهد الذي جفت به ضروع الحيوانات ما هو إلا دليل على القحط الذي أصاب المجتمع مما انعكس على الحيوان، والمشهد أيضا يظهر نوعية الطعام الذي يتناوله الناس، فأصبح خبزهم شعير، وأخذوا يأكلون الزواحف، وهنا يتجلى الفقر بأشد أنواعه، حتى أن الزواحف قد اختفت من شدة الحر والجوع.

المبحث الثالث

البيئة المكانية وأثرها الاجتماعي في النص الروائي

يُعدُّ المكان مثله مثل أي عنصر من عناصر البناء الفني محدَّدا عبر الممارسة الواعية للفنان فهو ليس بناءً خارجيا مرئيا، ولا حيزا محدود المساحة ولا تركيبا من غرف وأسيجة ونوافذ بل هو كيان من الفعل المغير والمحتوي على تاريخ ما([28]).

وقد ارتبطت دراسة المكان بالتحليل لكونه هو المجال الذي تجرى فيه أحداث القصة، وإن كانت الرواية أيضا بالأساس حدث روائي وشخصيات وفكرة، وللرواية جانب أخر هو مكان اللقاء هذا المكان الذي يسمح لشخصيات متعددة، بالالتقاء ضمن إطار عام وسياق واحد وبالتالي يساهم في تكوين الحدث الروائي، إذا المكان هو العمود الفقري الذي يربط أجزاء الرواية ببعضها بعضا([29]). إذا فالرواية هي التي تحدد المكان الذي يتحرك فيه البطل، و"المكان هو نظام وجود الأشياء في المجال الذي تجرى فيه أحداث القصة، فمكان الرواية ليس المكان الطبيعي إذ إن النص الروائي يختلف عن طريق الكلمات مكانا خاليا له مقوماته الخاصة وأبعاده المميزة، وإن إضفاء صفات مكانية على الأفكار المجردة يساعد على تجسيدها([30]).
يعد المكان من أهم العناصر الرئيسة التي لها دور في تجسيد الأبعاد الإنسانية للرواية، فليس بمقدور الحدث الروائي أن ينمو إلا في مكان ما، وقد يكون للطريقة الفنية التي يستخدمها الكاتب دور هام في إظهار جماليات المكان إلى جانب الدور البارز للشخصية في إظهارها.

المكان المفتوح

إن المكان المفتوح حيز مكاني خارجي لا تجده حدود ضيقة يشكل فضاء رحبا وغالبا ما يكون لوحة طبيعية للهواء الطلق، فمن الأماكن المفتوحة نجد القرية التي تطلق العنان لدلالات مختلفة منها الشعور بالحرية والقوة والانطلاق، كذلك الوطن الذي تشعر فيه بالأمن، الاستقرار والطمأنينة التي يحلم بالعيش فيها كل فرد من المجتمع وإنسان على سطح الأرض.

لقد كان للمكان حيزا هاما في روايات سميحة خريس كغيرها من الروايات، فالمكان عنصر رئيس من عناصر السرد الروائي، والمكان المفتوح الذي حمل دلالات واضحة، فعمان ذلك المكان المفتوح الذي استحضرته سميحة خريس لتمثل في بعض الأحيان للتعايش بين القوميات والأديان، ففي رواية دفاتر الطوفان، استحضرت سميحة خريس عمان فهي رواية مكان تحدثت عن تاريخ عمان، وعن جمال عمان، "الشرق الأردني والشركسي والبدوي والشامي والفلسطيني واللبناني والمصري والعراقي واليمني والأفغاني والمسيحي والمسلم، الطرابلسي والسلطي والنابلسي والمعاني والطفيلي"([31]). هذا المكان المفتوح المتمثل في عمان هذه المدينة التي اختلطت بها القوميات وتجانست الأديان، كانت على مسافة واحدة من الجميع، فتعايش الجميع على المحبة والتقارب.

وهذا المكان الذي كان قبلة للتجار من غير أهله، فقد كان الشركس يتاجرون فيه، وهم أصحاب تجارة، فهذه نجمة التي ورثت دكاكين زوجها وأصبحت هي المسؤولة عن كل شيء تؤجر متجرا لتاجر شركسي " ووقعت عقود الايجار بالتوالي بينها وبين تامبي الشركسي قبل أن تؤجرها"([32]). ولم يكن الناس يستغربون أو يرفضون تجارة هؤلاء، بل كانوا يرتادون متاجرهم ويتعاملون معهم، ويعدونهم من اهل المكان.

وعمان المكان الروائي الذي عبر عن المدنية والرفاهية "إلى أن لعبت برأس الرجل الذي تنتظر موته لينتقل إلى عمان، وطاوعها، اشترى بيتا في جبل عمان، وعمارة في شارع الرضا، ودكاكين في شارع السعادة، وأذعن لرغباتها، وأعراف أهالي عمان، فسمح لها بارتداء التروال المدني كارها"([33])، يظهر المشهد أن عمان كانت قبلة وحلما لمن أراد رفاهية العيش، وتظهر المدنية وتغير العادات والتقاليد واللباس من خلال المكان، فنجمة باتت تلبس التروال المدني، فخلعت ملابسها البدوية التي كانت ترتديها في معان، فقد غير المكان القيم والعادات والتقاليد، لأن عمان مكان الاختلاط في الثقافات وتعدد العادات والتقاليد. فعمان مكان منفتح على مقومات المعاصرة من العلم، وحرية المرأة، والأصالة والتاريخ التي تبقى راسخة منذ أزمان غابرة، وثابتة في هذا المكان.

والأرض بعموميتها كان مكانا مفتوحا غير منغلق، ففي وصف الأرض الزراعية التي كانت منبعا لاقتصادهم وحياتهم " كان يبكر فجرا هو وفريدة إلى الأرض يقلبانها ، وينظفانها.... يستصلحانها شبرا شبرا في انتظار زراعتها"([34])، نلاحظ أن هذه الأرض المنفتحة التي تدر على أصحابها بعض احتياجاتهم، فهي مصدر رزقهم، ونلاحظ هذا الاهتمام بالأرض واستصلاحها وتنظيفها.

المكان المغلق

يمثل المكان المغلق غالبا الحيز الذي يحوي حدودا مكانية تعزله عن العالم الخارجي، ويكون محيطه أضيق بكثير من المكان المفتوح، فقد تكون الأماكن الضيقة مرفوضة لأنها صعبة الولوج، وقد تكون مطلوبة لأنها تمثل الملجأ والحماية التي يأوي إليها الإنسان بعيدا عن صخب الحياة([35]). والأماكن المغلقة متعددة منها الأليفة، التي نعود إليها آخر النهار لنرتاح من تعب وشقاء اليوم كالبيت رمز الدفيء والاستقرار النفسي والجسدي، والأمكنة المغلقة كالمقاهي والمخيفة كالسجن، وهذه الأمكنة بدورها تنقسم إلى أمكنة الإقامة الاختيارية كالمقاهي والبيت وأمكنة الإقامة الجبرية كالسجن.

لقد كان البيت والحجرات من أهم الأمكنة المغلقة التي وظفتها سميحة خريس في أعمالها الروائية، "يتناولون غذائهم في حجرة فريدة المتسعة الخالية من الاثاث سوى صندوق خشبي ضخم مقفل وعدد من اللحفات والفرشات الصوفية الثقيلة رصت فوق بعضها في هرم كبير ودفعت إلى زاوية الحجرة([36])(شجرة الفهود – تقاسم الحياة، ص). إن الحجرة في هذا المشهد تمثل المكان المغلق، والمكان المغلق هنا له دلالة الوضع الاقتصادي، الخالي من الرفاهية، فرغم اتساع الحجرة إلا أنها خالية من الأثاث، والملاحظ أن الأثاث القليل المتواجد في هذه الحجرة ما هو إلا إيحاءات إلى افتقار الحال.

وتأتي الحجرة لتمثل أيضا المكان المغلق ولكن لدلالة أخرى مغاير، "وزعت فريدة المهام بحس عادل، إحداهن تخبز والأخرى تعبئ الماء واحدة تطبخ الطعام والأخرى تنظف الحجرات، باستثناء حجرة ضرتها...([37])، هذه الحجرة التي تعود إلى الزوجة الثانية تظهر تلك الغيرة التي تسكن قلب الزوجة الأولى، وتدل أيضا على تعدد حجرات البيت الذي يقطنه أكثر من زوجة.

ويأتي البيت كمكان مغلق ليعبر عن قيود تتملك المرأة "ولكنها عادت إلى بيتها عندما أيقنت أنها حبلى في البطن الثاني"([38])، يمثل البيت هنا سجنا منغلق لتلك الزوجة التي كرهت العيش مع زوجها، فبعد أن قررت الطلاق واكتشفت أنها حبلى عادت إلى بيتها مجبرة مكرهة، والمكان الذي يكره العيش فيه يتحول إلى سجن مقيد للحرية.

أما الصندوق فكان حاضرا لتعبر من خلاله الكاتبة عن ضحالة تفكير المرأة "لا تذكر نجمة من رحلتها إلى معان عبر درب صحراوي إلا صندوق الأحذية الذي ظلت تتأكد من صلاح أمره فوق البغلة التي لحقت بقافلتها"([39])، إن الصندوق مكان للأحذية التي وضعتها به نجمة، ونلاحظ أن تفكير نجمة كان منحصرا في ذلك الصندوق الذي تضع به الأحذية، وقد كانت مهوسة باقتناء الأحذية الراقية والجميلة، وطوال الطريق الصحراوي وهي تتذكر ذلك الصندوق الذي يسكنه ما تحب.

الخاتمة

تناولت هذه الدراسة رؤية الروائية الأردنية للعلاقات الاجتماعية المعاصرة، وذلك من خلال دراسة الأعمال الروائية للكاتبة الأردنية سميحة خريس للوقوف على المضامين الرؤية الروائية التي تناولتها الروايات الأربعة (رواية خشخاش، ورواية الصحن، ورواية دفاتر الطوفان، ورواية القرمية) تلك التي تركزت على العلاقات الاجتماعية من خلال رؤية الكاتبة. هذه الروائية التي تعد بحق نموذجا يمثل الروائيات الأردنيات اللواتي حملن المتلقي إلى أسفار المجتمع الأردني في حقبة عاشها الآباء والأجداد. تلك الحقبة التي مثلت قيم المجتمع وعاداته وتقاليده، ورسمت صور الرجل والمرأة، وحملت في مضامينها الكثير من القضايا المجتمعية بأسلوب سردي قلَّ نظيره.

فكان الرجل ماثلا في غير صورة حملتها تلك الأعمال، فالرجل الأب الرجل الزوج والابن، والعاشق، والرجل الفارس، كل ذلك من خلال مشاهد فنية حملت الأعمال الروائية، إضافة إلى المرأة وقضاياها، فتمثلت المرأة المتعلمة، والمسالمة، والمتكبرة، وغير المبالية، وأظهرت قضايا الزواج والطلاق.

وقد حملت أعمال سميحة خريس جوانب من الحياة الاجتماعية للمجتمع الأردني، وسطرت بعض الجوانب من تاريخ الاردن الحديث بأسلوب سردي أتقنت مكوناته، فكانت الطبقية التي عانى منها المجتمع آنذاك، تلك التي قسمت المجتمع إلى أغنياء وفقراء، ومثلت أعمالها لقضية الفقر التي استحضرتها في غير مشهد روائي.

وتفننت سميحة خريس بتوظيف المكان، سواء أكان مفتوحا أم مغلقا، لتحمله الدلالات التي تعبر عن مضامين تحمل بجعبتها صور المجتمع وخفاياه.

Abstract

The Jordanian novelist's vision of contemporary social relations "Sameha Khreis is a model"

By Malik Al-Sarayra

The research aimed to identify the Jordanian novelist's vision of contemporary social relations, and to get to know the Jordanian novelist Samiha Khreis and her fictional works, in addition to revealing the fictional contents that highlight social relations in her works, through studying four novels: the novel Khashkhash, the novel The Saucer, and the novel Notebooks. The flood, and the novel Al-Qarmiyyah. The research adopted the descriptive analytical method as a basis on which: Because it is suitable for this type of research, and the social approach to highlight social relationships. Samiha Khreis's works carried aspects of the social life of Jordanian society, and she wrote some aspects of Jordan's modern history in a narrative style whose components she mastered. The classism that society suffered from at that time was that which divided society into the rich and the poor, and her works represented the issue of poverty that she conjured in other than a narrative scene. . Samiha Khreis excelled in using the place, whether open or closed, to carry connotations that express contents that carry with them images of society and its secrets.

Keywords: vision, Jordanian novelist, social relations, Sameha Khreis

الهوامش

[1]) الخطيب، أحمد، السمات الملحمية في رواية يحيى لسميحة خريس، مجلة جامعة الخليل للبحوث، المجلد(8)، العدد(2)، 2013، ص184

[2]) فريجات، عادل، مرايا الرواية: دراسة تطبيقية في الفن الروائي، دمشق، منشورات اتحاد الكتاب العرب، 2000، ص9.

[3]) مفقودة، صالح، أبحاث في الرواية العربية، منشورات مخبر أبحاث في اللغة والأدب الجزائري، الجزائر، (1997)، ص4

[4]) مرتاض، عبدالملك، في نظرية الرواية: بحث في تقنيات السرد، عالم المعرفة، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، الكويت، 1998، ص11.

[5]) وهبة، مجدي؛ والمهندس، كامل، معجم المصطلحات العربية في اللغة والأدب، بيروت، لبنان، مكتبة لبنان، 1984، ص183.

[6]) فتحي، إبراهيم، معجم المصطلحات الأدبية، تونس، المؤسسة العربية للناشرين المتحدين، 1988، ص176.

[7]) مفقودة، أبحاث في الرواية العربية، الجزائر، ص6.

[8]) سعيد، مقيديش، الرواية العربية إشكالية المصطلح والريادة، مجلة النقد والدراسات الأدبية واللغوية، العدد(3)، 2015، ص242.

[9]) حمداوي، جميل، مستجدات النقد الروائي، المغرب، الدار البيضاء، المركز الثقافي العربي، 2011، ص25.

[10]) الشامي، رشاد، المرأة في الرواية الفلسطينية، (1945–1985)، دمشق، منشورات اتحاد الكتاب العرب، 1998، ص15.

[11]) لوكاش، جورج، الرواية ملحمة برجوازية، ط1، بيروت، لبنان، دار الطليعة، ترجمة: جورج طرابيشي، 1979، ص9.

[12]) خريس سميحة، القرمية، منشورات أمانة عمان الكبرى، عمان، الأردن، 1999، ص123

[13]) خريس، سميحة، دفاتر الطوفان، الدار المصرية اللبنانية، القاهرة، 2003، ص26

[14]) خريس، دفاتر الطوفان، ص26

[15]) خريس، دفاتر الطوفان، ص155

[16]) خريس، سميحة، خشخاش، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، 2000، ص14
[17]) خريس، سميحة، الصحن، دار أزمنة، عمّان، الأردن، 2003، ص17
[18]) خريس، دفاتر الطوفان، ص33
[19]) المرجع نفسه، ص152
[20]) خريس، الخشخاش، ص8–9
[21]) خريس، دفاتر الطوفان، ص19
[22]) المرجع نفسه، ص21
[23]) خريس، القرمية، ص206
[24]) خريس، دقاتر الطوفان، ص15
[25]) المرجع نفسه، ص19
[26]) خريس، دفاتر الطوفان، ص18
[27]) خريس، القرمية، ص62
[28]) باشلار، غاستون، جماليات المكان، ترجمة: غالب هلسا، بيروت، المؤسسة الجامعة للدراسات والنشر والتوزيع، ط2، 1984، ص60.
[29]) برادة، محمد، الرواية العربية واقع وآفاق، دار ابن راشد للطباعة والنشر، 1981، ص210.
[30]) عزام، محمد، تحليل الخطاب الروائي على ضوء المناهج النقدية الحديثة: دراسة النقد، منشورات اتحاد الكتاب العرب، دمشق، 2003، ص113.
[31]) خريس، دفاتر الطوفان، ص32
[32]) خريس، دفاتر الطوفان، ص29
[33]) خريس، دفاتر الطوفان، ص23
[34]) سميحة، خريس، الصحن، ص51
[35]) النصير، ياسين، إشكالية المكان في النص الأدبي: دراسة نقدية، ط1، بغداد، العراق، دار الشؤون الثقافية العامة، 1986، ص5–8.
[36]) سميحة، خريس، الصحن، ص63
[37]) سميحة، خريس، الصحن، ص70
[38]) خريس، دفاتر الطوفان، ص20
[39]) خريس، دفاتر الطوفان، ص20

قائمة المصادر والمراجع

باشلار، غاستون، (1984)، **جماليات المكان**، ترجمة: غالب هلسا، بيروت، المؤسسة الجامعة للدراسات والنشر والتوزيع.

برادة، محمد، (1981)، **الرواية العربية واقع وآفاق**، دار ابن راشد للطباعة والنشر، (د.م).

حمداوي، جميل، (2011)، **مستجدات النقد الروائي**، المغرب، الدار البيضاء، المركز الثقافي العربي.

خريس سميحة، (1999)، **القرمية**، منشورات أمانة عمان الكبرى، عمان، الأردن.

خريس، سميحة، (2000)، **خشخاش**، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت.

خريس، سميحة، (2003)، **الصحن**، دار أزمنة، عمّان، الأردن.

خريس، سميحة، (2003)، **دفاتر الطوفان**، الدار المصرية اللبنانية، القاهرة.

الخطيب، أحمد، (2013)، السمات الملحمية في رواية يحيى لسميحة خريس، **مجلة جامعة الخليل للبحوث**، المجلد(8)، العدد(2).

سعيد، مقيديش، (2015)، الرواية العربية إشكالية المصطلح والريادة، **مجلة النقد والدراسات الأدبية واللغوية**، العدد(3).

الشامي، رشاد، (1998)، **المرأة في الرواية الفلسطينية، (1945–1985)**، دمشق، منشورات اتحاد الكتاب العرب.

عزام، محمد، (2003)، **تحليل الخطاب الروائي على ضوء المناهج النقدية الحديثة: دراسة النقد**، منشورات اتحاد الكتاب العرب، دمشق.

فتحي، إبراهيم، (1988)، **معجم المصطلحات الأدبية**، تونس، المؤسسة العربية للناشرين المتحدين.

فريجات، عادل، (2000)، **مرايا الرواية: دراسة تطبيقية في الفن الروائي**، دمشق، منشورات اتحاد الكتاب العرب.

لوكاش، جورج، (1979)، **الرواية ملحمة برجوازية**، ط1، ترجمة: جورج طرابيش، بيروت، لبنان، دار الطليعة.

مرتاض، عبدالملك، (1998)، **في نظرية الرواية: بحث في تقنيات السرد**، عالم المعرفة، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، الكويت.

مفقودة، صالح، (1997)، **أبحاث في الرواية العربية**، منشورات مخبر أبحاث في اللغة والأدب الجزائري، الجزائر.

النصير، ياسين، (1986)، **إشكالية المكان في النص الأدبي: دراسة نقدية**، ط1، بغداد، العراق، دار الشؤون الثقافية العامة.

وهبة، مجدي؛ والمهندس، كامل، (1984)، **معجم المصطلحات العربية في اللغة والأدب**، بيروت، لبنان، مكتبة لبنان.